﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾

(الرحمن: 1_4)

المحاضرة الأولى: علم البلاغة (مفهومه ، نشأته ، تطوّره ، وفروعه)

تمهيد:

تبوّأت اللغة العربية منزلة رفيعة في ظلّ القرآن الكريم ، فأصبحت الشغل الشاغل لأبنائها ، ولغير أبنائها من العجم - على تباين تخصصاتهم ودقّتها — من مفسرين وفقهاء ولغويين ونحويين وبلاغيين وغيرهم. لأجل هذا كلّه ، لم تحظ أيّة لغة من اللغات ، منذ خلق الله - تعالى - الإنسان بما حظيت به اللغة العربية من العناية المستمرّة على ممرّ الأجيال والعصور. وتبدو هذه العناية فيما ظهر من مؤلفات ، وعلوم متنوعة محور بحثها النص المقدّس. كعلوم اللغة بفروعها: النحو والصرف ، والعلوم الشرعية ، كعلم التفسير والناسخ والمنسوخ ، وعلم البلاغة بفروعه: المعاني والبيان والبديع. فما مفهوم البلاغة ؟ وما هي مراحل نشأتها ؟ وما هي فروعها ؟ وغيرها من الأسئلة نحاول الإجابة عنها من خلا ل العناصر الآتي ذكرها:

أولا: تعريف البلاغة لغة واصطلاحا:

- **لغة:**

هي الوصول والانتهاء ، " يقال: بلغ الشيء أي وصل إليه ، وانتهى إليه ، وتبلّغ بالشيء وصل على مراده ، والبلاغ ما يُتبلّغ به ، ويتوصّل إلى الشيء المطلوب ، بلغت الغاية إذا انتهيت إليها ، مبلغ الشيء منتهاه ، رجل بليغ: حسن الكلام فصيحه ، يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه ، وبَلُغَ : صار بليغا ، وتبالغ به الفرح والحزن: تناهى.... " .[1]

- **اصطلاحا:**

إذا ما جئنا إلى تعريف البلاغة اصطلاحا ، ألفينا مفاهيم عديدة ، نكتفي بذكر أهمها:

- يعرّفها " **الجاحظ** " بقوله: " كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ، ولا حُبسة ، ولا استعانة

[1] ابن منظور ، لسان العرب ، دار الجيل، بيروت، د ط، 1988مادة (بلغ)

فهو بليغ ".[2]

- ويرى " **فخر الدين الرازي** " أنّ: " البلاغة بلوغ الرجل بعبارته كنه ما في قلبه مع الاحتراز عن الإيجاز المُخلّ ، والإطالة المُملّة ".[3]
- ويعرّفها " **الخطيب القزويني** " بقوله: " فأمّا بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ".[4]
- وتتلخّص البلاغة من منظور " **عبد القاهر الجرجاني** "* في أنّها " لا تكون في الحديث الملفوظ أو المكتوب ، وأنّها لا تفصل بين العلم والذوق ، ولا بين المعنى والمبنى ، فالكلام كائن حي ؛ روحه المعنى وجسده اللفظ ".[5]

❖ بهذا فالبلاغة: هي تأدية المعنى الجليل واضحا بعبارة صحيحة فصيحة ، مؤثّرة في النفس. ولا تخرج البلاغة عن معنيين: " **الأول** بلاغة المتكلِّم ، وهي ملكة يقدر بها على تأليف كلام بليغ ، **والثاني** بلاغة الكلام ، وهي مطابقته لمقتضى الحال ، وقيل البلاغة وهي تنبّئ عن الوصول والانتهاء ، يوصف بها الكلام والمتكلِّم فقط دون المفرد ".[6]

ثانيا: تعريف الفصاحة لغة واصطلاحا:

■ لغة:

تطلق الفصاحة على معانٍ عديدة ؛ من بينها نذكر: البيان والظهور ، والخلوص والنقاء من الشوائب ؛ أفصح الصبح: إذا أضاء ، أفصح الأعجمي: إذا أبان ، أفصح فلان عما في نفسه: إذا أعرب عنه ، فصُح اللبن وأفصح: إذا أخذت عنه الرغوة ، يوم مفصح: لا غيم فيه ،....

---

[2] الجاحظ ، البيان والتبيين ، تح/ عبد السلام هارون ، دار الجيل ، بيروت ، د ط ، د ت ، ج1 ، ص113.

[3] الرازي ، الإيجاز في نهاية الإعجاز ، تح/ سعد سلمان حمودة ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، د ط ، 2008 ، ص 37.

[4] الخطيب القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، تح/ محمد عبد المنعم خفاجين ، دار الكتاب الحديث الكويت ، د ط ، د ت ، ج 1 ، ص 41.

* هذا مع أنّ " الجرجاني " لم يُعرِّف البلاغة ، والفصاحة والبلاغة والبراعة والبيان عنده بمعنى واحد.

[5] ينظر: أحمد مطلوب ، معجم مصطلحات البلاغية وتطورها ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، د ط ، 1983. ج 1 ، ص 404.

[6] الشريف الجرجاني ، التعريفات ، مكتبة لبنان ، بيروت ، د ط ، 1985 ، ص 47.

- **اصطلاحا:**

هي عبارة عن الألفاظ البيّنة الظاهرة المتبادرة إلى الفهم ، والمألوفة في الاستعمال ، وبتعبير آخر: هي الخلو من العيوب التي تلحق الكلمة أو الكلام أو المتكلم ، والعيب إما أن يمسّ مادتها/ حروفها ، أو صورتها/ صيغتها ، أو دلالتها.

ثالثا: مقاييس الفصاحة عند العرب:

❖ **فصاحة الكلمة:** سلامتها من أربعة عيوب: تنافر الحروف ، غرابة اللفظ ، الكراهة في السمع ، مخالفة القياس.

1_ تنافر الحروف:

فهو يؤدي إلى ثقل في السمع ، وصعوبة في الأداء ، وذلك لتقارب مخارج الحروف. ولا ضابط لمعرفة الثقل والصعوبة سوى الذوق السليم والحسّ الصادق.

- **أمثلة توضيحية:**

الصمعمع (صغير الرأس) ، الظّش (الموضع الخشن) ، هعخع (نبات ترعاه الإبل) ، المثغنجر (السائل من ماء ، أو دمع).

2_ غرابة اللفظ:

تكون الكلمة غير ظاهرة المعنى ولا مألوفة الاستعمال عند العرب ، حيث إنها تحتاج للبحث عن معناها في المعجم.

- **أمثلة توضيحية:**

بُعاق (المطر) ، جردحل(الوادي) ، مسحنفرة (متّسعة) ، جحيش (فريد مستبد برأيه).

3_ الكراهة في السمع:

تكون الكلمة وحشية غليظة ، تمجُّ الأسماع ، وتأنف منها الطباع.

- **أمثلة توضيحية:**

الجرشيّ (النفس)، النُقاخ (العذب من الماء)

4_ مخالفة القياس:

تكون الكلمة غير جارية على القانون الصرفي المستنبط من كلام العرب.

- **أمثلة توضيحية:**

الأجلل (الأجلّ): فكّ الإدغام ، نواكس (جمع ناكس): فواعل يكون للمؤنث العاقل لا المذكّر العاقل ، بمعنى مطأطي الرؤوس.

❖ **فصاحة الكلام:** سلامتها من أربعة عيوب: تنافر الحروف ، غرابة اللفظ ، الكراهة في السمع ، مخالفة القياس.

1_ تنافر الكلمات مجتمعة:

ويدخل فيه كثرة التكرار وتتابع الإضافات ، فيوجب ثقلها واضطراب اللسان عند النطق بها.

- **مثال توضيحي:**

وقبرُ حرب بمكان قفرُ وليس قربَ قبر حرب قبرُ (٤)

2_ ضعف التأليف:

هو أن يكون تأليف الكلام مخالفا لما اشتهر من قوانين النحو المشهورة ، كوصل الضميرين ،....

- **مثال توضيحي:**

خلت البلاد من الغزالة ليلها فأعاضها الله كي لا تحزنا

3_ التعقيد اللفظي:

ان تكون الألفاظ مرتبة لا على وفق ترتيب المعاني ، فيفسد نظام الكلام وتأليفه بسبب ما يحصل فيه من تقديم وتأخير ونحو ذلك ، كتقديم الصفة على الموصوف ، والصلة على الموصول.

- **مثال توضيحي:**

إلى ملك ما أمه من محارب أبوه ولا كانت كليبٌ تصاهرهُ

4_ التعقيد المعنوي:

هو خفاء دلالة الكلام على المعنى المراد من أجل ما عاقها من اللوازم البعيدة و الكنايات المفتقرة إلى وسائط ، أو اللوازم القريبة الخفية العلاقة.

- **مثال توضيحي:**

سأطلب بُعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

رابعا: الفرق بين الفصاحة والبلاغة:

❖من العلماء المتقدّمين كـ " الجرجاني " من يرى أنّ الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة ألفاظ مترادفة ، وقال" العسكري ": " الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد ، وإن اختلف أصلاهما لأنّ كلّ واحد منهما هو الإبانة على المعنى والإظهار له ".

❖في حين يرى المتأخّرون كـ " السكّاكي " و " ابن الأثير " أنّهما يختلفان ، ويجعلون البلاغة اسما يطابق مقتضى الحال مع الفصاحة. وعليه ، فالعلاقة بينهما قوية ، إلا أنّ البلاغة كلٌّ والفصاحة جزء بالنظر إلى أنّ:

- الفصاحة من صفات المفرد والبلاغة من صفات المركّب.
- الفصاحة مقصورة على اللفظ ، والبلاغة مقصورة على المعنى.
- كلّ كلام بليغ فهو فصيح ، وليس كلّ فصيح بليغ.

خامسا: مراحل تطور علم البلاغة

1_ في العصر الجاهلي:

اشتهر العرب منذ العصر الجاهلى بفطرتهم السليمة وطبعهم الأصيل وبالفصاحة والبلاغة فكانت تعقد مجالسات للشعر ، ومحاكمات أدبية للشعراء ولاسيما فى سوق عكاظ. وكان النابغة

الذبياني من الشعراء الذين كانوا يحتكمون عندهم فكان يبدى ملاحظاته على معانى الشعراء وأساليبهم . فكانوا يدركون بفطرتهم اللغوية الصامتة عناصر هذا البلاغة ومقوماتها دون الحاجة إلى تعيينها بأسمائها الاصطلاحية ، بل دون الشعور بهذه الحاجة قط.

وقد ذكر القرآن الكريم ما يؤيد ذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾(المنافقون: 4)

وقوله تعالى" :﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (البقرة: 204)، وتحدث الرسول الكريم ــ عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ــ عن فصاحته ، وذكر أصالتها فى قومه ونفى اللحن عن نفسه فيقول" :أنا أعرب العرب ، ولدتنى قريش ونشأت فى بنى سعد فأنى يأتينى اللحن " ، ويقول أيضا": أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش) ."

إلا أن العرب فى بلاغتهم فى الجاهلية لم يعتمدوا على الفطرة والموهبة فقط ، ولكن كانوا يعملون على صقلها بالممارسة والتنقيح ، ويحكمون على العمل الجيد من الردىء .وخير مثال لذلك المعلقات السبع وسوق عكاظ ، ومدرسة زهير ، التى كان أصحابها رواة يتخرج فيها بعضهم على أيدى بعض . ونشير إلى أن الجاهليين كانوا يحكمون على التذوق الجمالى بأسماء غير التى تعارف عليها البلاغيون فى العصور اللاحقة .

2ــ فى العصر الإسلامى:

أخذت عناية العرب بالأساليب والفصاحة والبلاغة تنمو بعد ظهور الإسلام ، بدافع المداومة على القرآن الكريم ، والاستماع إلى أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام .وقد تطور الأدب تطورا سريعا بعد ظهور الإسلام بنحو نصف قرن حين نشأ الجيل الجديد من العرب واتصلوا بالأمم الأجنبية إذ أن البلاغة فى هذا العصر لا تختلف كثيرا عن البلاغة فى العصر الجاهلى فقد كانوا يجرون فى أساليبهم على السليقة والطبع تارة ، وعلى الدربة والتثقيف تارة أخرى. فيعطون اللفظ والمعنى حقهما ويصلون إلى الغرض من الإيجاز أو الإطناب أو المساواة على حسب ما يقتضيه المقام.

3ــ فى العصر الأموي:

فى هذا العصر اتسعت الرقعة الإسلامية ، وكثرة الأحزاب ، وتعددت الطوائف فكان هناك الخوارج والشيعة والزبيريون والأمويون ، فكانت تلك الطوائف لها أدبها وشعرها كطائفة النحويين واللغويين ، والمتكلمين والنقاد والكتاب و الأصوليين ، من فرد إلى فرد وكل عّلم من الأعلام ، يسهم فى إرساء القواعد وإقامة الدعائم ورصد الأحجار فى البناء حتى اكتمل وصار شاهقا على يد عبد القاهر الجرجانى(ت 471 ه) ذلك العالم الفذ ، والإمام الأكبر الذى بلورها فى ثوبها الفنى الرائع.

ويرى" ضيف " أنها قامت فى هذا العصر بعض الأسواق كسوق عكاظ فى العصر الجاهلى مثل سوق المربد فى البصرة ، وسوق الكناسة فى الكوفة .بل لقد تحولا إلى ما يشبه مسرحين كبيرين يغدو عليهما شعراء البلدتين ومن يفد عليها من البادية ، لينشدوا الناس خير ما صاغوه من أشعار فيبدون ملاحظاتهم البيانية والتعبيرية.

4_ فى العصر العباسى:

تطورت البلاغة العربية وازدهرت بمجىء الإسلام ، ثم ازدادت كما وكيفا باتساع الرقعة الإسلامية ، وما شهدته فى جميع مناصب الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية والأدبية. وكذلك اشتهر العديد من العلماء فى مجال البلاغة ممن كان لهم باع كبير نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: عبد الله بن المقفع (ت ، 143 ه)، أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى(ت ، 210 ه) صاحب كتاب" مجاز القرآن" ، الفراء "صاحب كتاب" معانى القرآن "(ت ، 207 ه)، الجاحظ (ت ، 255 ه) صاحب كتاب" البيان والتبيين ، "والخطابى (ت ، 388 ه) صاحب كتاب" إعجاز القرآن ، "وغيرهم كثيرون أمثال ابن المعتز ، والرمانى ، وأبو هلال العسكرى.

وبعد ذلك ازدهرت الدراسات البلاغية ازدهارا كبيرا ، فى العصر العباسى **الثانى** وذلك فى القرن **الخامس الهجرى** ، وذلك على يد عبد القاهر الجرجاني ، صاحب كتابى"دلائل الإعجاز "و"أسرار البلاغة." وكذلك هناك الزمخشرى صاحب كتاب" الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه لتأويل "(ت ، 538 ه) واهتم الزمخشرى بعلمى المعانى والبيان ، وجعل لكل منهما مباحثه الخاصة به .وفى القرن **السابع الهجرى** اشتهر على بن ظافر المصرى ، والسكاكى ، وابن الاثير ،

وحازم القرطاجنى. وفى القرن **الثامن** ، اشتهر الطيبى والزركشى .وفى القرن **التاسع** ، اشتهر النواجى . وفى القرن **العاشر** ، السيوطى .وفى القرن **الحادى عشر** ، يوسف البديعى.

وقد اتجهت الدراسات البلاغية في أواخر هذا العصر إلى الجمود و التعقيد ، حيث اعتمدت كتب البلاغة بعد ذلك على ، التلخيص والشروح والحواشى والتقارير دون المتن الأصلى ،حيث يرى شوقي ضيف في كتابه :البلاغة تطور وتاريخ أنه لم يعد هناك إبداع بالبلاغة بعد الجرجاني والزمخشري وإنما كانت مرحلة جمع وتصنيف وتقعيد وفصل للبلاغة عن الأدب ، وسمى هذه المرحلة بمرحلة الجمود في البلاغة.

ومن البلاغيين الذين ظهروا في هذه المرحلة :الفخر الرازي الذي ألف كتاب :نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ، وضياء الدين ابن الأثير صاحب كتاب :المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، والخطيب القزويني ، ومن ثم ظهرت البديعيات وهي قصائد مطولة تجمع - تقريبًا - كل الألوان البديعية .ومن أصحاب البديعيات صفي الدين الحلي ، وابن حجة الحموي ، والسيوطي ، وعائشة الباعونية.

سادسا: فروع علم البلاغة:

علوم البلاغة ثلاثة هي: علم المعاني علم البيان وعلم البديع ، ولكل منها فروع متعددة ، اختلفت في مراجع البلاغة ومصادرها من باحث لآخر.

1_ علم المعاني:

❖ **تعريفه:**

هو علم يبحث في كيفية مطابقة الكلام لمقتضى الحال. وعليه فإنّه ، الطريق التي يجب أن يسلكها الأديب للوصول إلى هذه الغاية. وهنا يتوجب على الأديب أن يخاطب كل مقام بما يفهم ، وإلا ضاعت الغاية وذهبت الفائدة.

❖ **أقسامه:**

يتألف علم المعاني من الأقسام التالية:

- **الإنشاء والخبر**
- **التقديم والتأخير**
- **الإيجاز والإطناب والمساواة**
- **الفصل والوصل**

2_ علم البيان:

❖ **تعريفه:**

هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان ، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد.

❖ **أقسامه:**

يتألف علم البيان من الأقسام التالية:

- **التشبيه**
- **الحقيقة والمجاز**
- **الاستعارة**
- **الكناية**

3_علم البديع:

❖ **تعريفه:**

هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقته لمقتضى الحال ، ووضوح دلالته لخلوها من التعقيد المعنوي ، أما إذا انطلقنا من الوظيفة التي يؤديها ، قلنا إن البديع هو أن

يعمد الأديب إلى التعبير عما في نفسه بطريقة تفيد من طاقات الألفاظ في المعنى وفي الصورة أو في جرس الأصوات وإيحاءاتها.

❖ أقسامه:

يتألف علم البديع من الأقسام التالية:

- **البديع اللفظي(المحسنات اللفظية):** الجناس والسجع ، والتصريع ، ردّ العجز على الصدر ، والاقتباس والتضمين.
- **البديع المعنوي(المحسنات المعنوية):** الطباق ، والمقابلة ، والتورية ، وحسن التعليل وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وتأكيد الذم بما يشبه المدح ، وأسلوب الحكيم ، ومراعاة النظير ، والإرصاد ، والعكس والتبديل والمذهب الكلامي.

سابعا: علاقة علم البلاغة بغيره من العلوم:

أقرّ كثير من الباحثين الصلة الوثيقة بين علم البلاغة وعلوم العربية الأخرى ، نحاول بيان ملامحها العامة بإيجاز على النحو الآتي ذكره:

❖ البلاغة والأدب والنقد والتذوق الأدبي:

إن هذه الفنون الأربعة مرتبطة ببعضها ارتباطا وثيقًا ، فالنقد هو دراسة النص الأدبي ولم ينهض علم البلاغة إلا بالكشف عن مكنون الأدب شعره ونثره والوقوف على سر جماله .بهذا ، فالأدب والبلاغة والنقد الأدبي يجمعها رباط وثيق من معنى موحد يبدأ بالأدب الذي لا يُسمّى أدبا إلا إذا اتّسم بالبلاغة وينتهي بالنقد الأدبي الذي يأخذ مادته من كيان البلاغة في الأدب.

❖ البلاغة واللغة:

إن العلاقة قائمة بين قواعد اللغة وقواعد البلاغة ، فكلاهما من متطلبات النص الأدبي ، فابن سنان الخفاجي يعتقد أن للصوت قيمة جمالية ، ولهذا السبب فقد قسم الحروف إلى قسمين :قسم يحسن استعماله في الفصيح ، وقسم لا يحسن استعماله. والجاحظ قد حث على تخير اللفظ

وسهولة المخرج وجودة السبك وإقامة الوزن. ويرى أبو هلال العسكري أن اللفظ إنما يحسن بسلاسته ، وسهولته ، ونصاعته ، وتميز لفظه ، وإصابة معناه ، وجودة مطالعه ، ولين مقاطعه وهكذا نلاحظ أن هناك كثيرًا من المعايير اللفظية التي يستخدمها البلاغي في الحكم على اللفظ في النص الأدبي.

❖ البلاغة والنحو:

إن العلاقة قائمة ووطيدة بين علمي البلاغة والنحو ، فباحث البلاغة لا بد له من أن يبحث بعلم النحو ليكتمل بحثه ، وقد أكد على ذلك عبد القاهر الجرجاني من خلال نظرية النظم عنده حيث يرى أن قوام الصورة هو النظم ، والنظم هو السير على قواعد النحو دون الإخلال بها .وتبرز علاقة البلاغة بالنحو جلية في علم المعاني" وهكذا تتداخل علوم المعاني مع علوم النحو.

خاتمة:

لا يمكننا أن نحدد زمنًا معينًا لنشوء البلاغة ، فالبلاغة موجودة حيث وجد الأدب وإن كانت بشكلها الفطري البسيط. وقد مرت البلاغة بمراحل كثيرة إلى أن وصلت إلينا بأقسامها وفروعها التي نعرفها ، ولكننا نجدها قد انتهت على غير ما بدأت به ، فقد بدأت على أيدي الجرجاني إبداعًا فنيًا مرتبطًا بالأدب ، وانتهت على يدي السكاكي ومن تلاه تقسيمًا وتبويبًا وتقعيدًا ، حيث أصابها الجمود ، وتاه الباحث في كثرة فروعها وأقسامها.

مراجع:

1. البلاغة والنقد _ المصطلح والنشأة والتجديد _ لمحمد كريم الكواز
2. دروس في البلاغة العربية ، لسعد سليمان حمودة
3. علوم البلاغة _ البيان والمعاني والبديع ، لمصطفى المراغي.